

بها المؤرخون الغربيون في كتابة تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر على الخصوص، ومنهم الفرنسيون مثل فزال وبيكار، وستاس، وفيغري، وأنشائهم مجالات تاريخية علمية لها صبغة حدية مثل المجلة الافريقية وليبيكا وغيرهم.

ولعبت هذه المجالات التاريخية أدورا كبيرة في الكشف عن بعض العصور الماضية من تاريخنا كان يكتنفها الغموض والابهام فأصبحت هذه العصور بعد الدراسات الغربية لها يسودها شيء من الوضوح وأصبح المؤرخ الجزائري لا غنى عنه للرجوع الى أعمال المؤرخين هؤلاء أي كتبهم ومجلاتهم الصادرة في العهد الاستعماري كوثائق ومراجع ضرورية رغم المظاهر السلبية التي تطبعها أحيانا.

ولا بد أن يتم سد النقص الملحوظ عن طريق تأليف دراسات بأقلام وطنية عن تاريخ المغرب القديم وتاريخ الجزائر القديم، لكي يتم ملء الفراغ الحاصل نتيجة الافتقار الكبير للدراسات التاريخية المعمقة عن تاريخ افريقيا الشمالية قديما وهناك شروط ضرورية لتحقيق هذه الأمنية ويتجلى في فتح قسم خاص باللغات الشرقية القديمة كاللغة الفينيقية واللغة العبرية وكذا دراسة اللغة الليبية القديمة التي لم يتم حتى الآن فك رموزها. ثم لا ننسى أهمية دراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية نظرا الى أهميتها في تاريخ المغرب القديم. وقد تم الغاء اللغة اللاتينية من معهد التاريخ أخيرا، ونتمنى أن يتم إعادة النظر في هذا القرار في اطار اصلاح برنامج التاريخ لان الطالب المتخصص في تاريخ المغرب القديم لا بد أن يكون على المام باللاتينية والاغريقية، وحتى اللغات الشرقية لكي يستطيع أن يتعمق في هذا التاريخ.

الهوامش:

- (1) لقد وضع الفرنسيون جرءاً عاماً لما ألفوه عن الجزائر، فكان نصيب التاريخ القديم 252، وتاريخ الوسيط والحديث 198، والتاريخ المعاصر 369، والمونوغرافيا 129، والبيبلوغرافيا 119. وفي عالم الأدب كتب الفرنسيون 241 رواية وقصة و43 مسرحية و100 مقالة نقدية و224 قصيدة شعر و25 بحثاً في الجغرافية و44 دليلاً سياحياً حول عادات الجزائريين. و58 دراسة حول منطقة القبائل. و184 دراسة عن الصحراء.
- (2) بدأت تتشكل في الآونة الأخيرة نواة لمدرسة تاريخية تهتم أساساً بما قبل التاريخ والتاريخ القديم (العهود الفينيقية والقرطاجية والرومانية) في مقدمة من ساهموا بكتاباتهم في هذا المجال نذكر: الأساتذة: محمد البشير شنتي، محمد الصغير غانم، محمد الطاهر العدواني، منير بوشناق، مليكة حشيد، مصطفى فلاح، كلثوم دحو، تومية رويني وغيرهم.

سالوستيوس وحرب يوغرطة (دراسة تحليلية نقدية)

محمد الهادي حارش

موضوع ملتقانا هذا - المدرسة الغربية وقضايا التاريخ الجزائري - ومصطلح المدرسة الغربية مصطلح حديث. وأنا أتناول بالدراسة موضوع «حرب يوغرطة» من وجهة نظر مؤرخ روماني، وبالتالي ربما يتبادر الى الأذهان من الوهلة الأولى أنه خارج موضوع المدرسة الغربية، لكن لو تعمنا جيدا فيما كتبه المؤرخون الاغريق والرومان لا حول المغرب القديم فحسب، بل حول الشرق كله، لوجدنا أن المدرسة الغربية حديثة كمصطلح، وقديمة قدم التاريخ كفكر، وتكفينا نظرة على كتاب بلوتارخوس⁽¹⁾ (الاخلاقيات Moralia، الذي يحتوي على جزء سماه: تحيز هيرودوت (De malignitate Herodotis) اتهم فيه أبا التاريخ بالميل والتحيز الى البرابرة (الشرق) وأتهمه بالاجحاف، ذلك لانه لم يكن متحاملا على الشرق، بل نقول أنه لم يظهر تحامله على الشرق، وتبجحه في شعوره القومي⁽²⁾، مثله مثل غالبية المؤرخين الاغريق والرومان، خاصة الذين يستهدفون وراء كتاباتهم تمجيد الأمة الرومانية، وازهار قوتها وفضلها، وبالمقابل اعتبار كل الشعوب والأمم الأخرى همجا، لا دين ولا ملة لهم، جبلوا على المكر والخديعة، ونذكر من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر تيتوس ليفيوس وسالوستيوس. وربما كان هذا هو السبب وراء اختياري لكتاب سالوستيوس كموضوع بحث لهذا الملتقى.

Tous les efforts des hommes doivent tendre à ne pas traversée la vie sans faire parler d'eux»(3).

لكن قبل كل شيء المجد الذي كان يتمناه هو المجد الذي يتمتع به ، وهو على قيد الحياة :

«tout homme qui s'ingénie à être supérieur aux autres êtres doit faire un suprême effort afin de ne point passer sa vie sans faire parler de lui»(4).

ولتحقيق هذه الرغبة توجه سالوستيوس الى العمل السياسي ، ومال الى الديمقراطيين (بحكم انتمائه الطبقي) ، وعين محاسبا (Questeur) سنة 55 ق.م. ، ثم ممثلا للامة في مجلس الشيوخ سنة 52 ق.م. لكنه سرعان ما أبعد منه بتهمة اخلاقية سنة 50 ، وبذلك تحطمت تجربته السياسية الأولى ، لكنه بعد سنة يبدأ تجربته الثانية رفقة الدكتاتور (يوليوس قيصر) الذي أعاده الى مجلس الشيوخ سنة 49 ق.م وعين محاسبا للمرة الثانية⁽⁵⁾.

وفي سنة 47 ق.م. عينه قيصر بريتورا (Preteur) ، وكلفه بتهدئة جنود كامبانيا Campaignie المتمردين . لكنهم أساءوا استقباله . وفي سنة 46 ق.م. وبعد انتصار قيصر في معركة تابسوس عينه حاكما لمقاطعة افريقيا الجديدة Africa-nova لكن الأمور لم تسر كما كان يتمناها سالوستيوس . اذ أنهم بابتزاز الولاية ، ولم يخلصه من التهمة سوى تقديمه مبلغ 1200.000 سستراس لقيصر على ما يذكر ديون كاسيوس⁽⁶⁾.

وفي سنة 45 ق.م. عاد الى روما . وفي الخامس عشر من مارس تم اغتيال قيصر ، وبذلك غادر سالوستيوس الحياة السياسية دون تحقيق مبتغاه في الوصول الى منصب القنصلية⁽⁷⁾ . ويذكر في هذا الصدد أنه حتى لو عاش قيصر أكثر من ذلك لما تمكن سالوستيوس من الوصول الى منصب القنصلية . بحكم أن قيصر في سنته الأخيرة عندما كان يستعد للذهاب لمحاربة البارثيين Parthes عين القنصلية مسبقا . ولم يكن من بينهم سالوستيوس . وهو ما جعل سالوستيوس يفقد كل الثقة . وقد عبر عن ذلك بقوله : «... ان الشرف لم يعد مخصصا للاستحقاق... البعض وصلوا بالدسياسة . لكنهم لم يجدوا لا الأمن ولا الاحترام . والبعض الآخر وصلوا

والسبب الثاني ان هذا الكتاب ، يعد المصدر الأساسي لهذه الحرب ، نهلت منه المدرسة الغربية بدون تبصر أو تحليل - عن قصد - في أحيان كثيرة ، أو لأنها لم تجد البديل في أحيان أخرى.

أما عن محتوى الكتاب فسالوستيوس يبدأه بمقدمة فلسفية مطولة ، تحدث فيها عن الأخلاق والفضيلة والطبيعة البشرية والخير والشر والشهرة والعظمة والمجد والخلود ، والعفة والشرف والاستقامة ، ثم عن أسباب اختياره لحرب يوغرطة ، ومكانة هذا الأخير ضمن العائلة الماسيلية ، وعن ظروف تنبئه من طرف مكيسا (مكوسن) ، ثم صراعه مع شقيقه (بالتيني) اذربعل وهيمبصال ، واستيلائه على السلطة ، ثم أطوار هذه الحرب ، ونظرا لسعة الموضوع سأكتفي في هذه الدراسة بتسليط الأضواء على ثلاث نقاط في الكاب هي :

1 - المقدمة وعلاقتها بموضوع حرب يوغرطة.

2 - فكرة التنبئ.

3 - فكرة الرشوة ، وبسبب تشعب هذه الفكرة وكونها ربما المحور الذي يرتكز عليه الكتاب ، اكتفي بمناقشتها في خمس مواضع فقط على أن أعود الى الموضوع في دراسة لاحقة أوسع وأشمل.

1 - علاقة المقدمة بموضوع «حرب يوغرطة» :

يمكننا القول وبدون تردد أن المقدمة التي وضعها سالوستيوس لكتابة «حرب يوغرطة» لا صلة لها بموضوع الحرب ، وأن صلتها بحياة سالوستيوس أوثق وأكبر من صلتها بموضوع الحرب وهو ما سنعمل على تبيانه في الصفحات الموالية ، وذلك بالتعرض الى بعض الجوانب من حياة سالوستيوس والظروف النفسية التي كان يعيشها عندما بدأ في تأليف هذا الكتاب ، بعد أن تجاوز الأربعينات من حياة مليئة بالطموحات والانتكاسات.

ينحدر سالوستيوس (كايوس كريسيبوس 86-35 ق.م.) من عائلة ثرية لكنها تنتمي الى الطبقة العامة ، توجه الى روما بحثا عن الشهرة والمجد ، وعمل في نفس الوقت على تخليد اسمه⁽³⁾.

بالقوة⁽⁸⁾. كما عبر عن خيئته ونيته في الاقلاع عن العمل السياسي في الفترتين الثالثة والرابعة من حرب يوغرطة:

«Mais, parmi tous ces moyens les magistratures, les commandements militaires, une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temp présent, car ce n'est pas le merite qui est à l'honneur.»(9).

«tout jeune encore, à mes débuts, je me suis, comme à peu près tout le monde, jeté avec fogue dans la politique j'y ai éprouvé bien des déboire, au lieu de la reserve, du désintressement. Ce spectacle m'était odieux, car je n'avais pas l'habitude du mal, mais ma jeunesse, séduite par l'ambition, était faible devant de tels vices et m'y retenait et si je n'approuvais pas de mauvaise conduite des autres néanmoins un même desir des honneurs méentraînait et m'exposait comme eux, aux méchants propos et à la haine.»(10).

«Même des hommes nouveaux, qui jadis avaient l'habitude de sur passer la noblesse en vertu, recourent au vol et au brigandage plutôt qu'aux paratiques honnêtes, pour s'élever au commandements et aux honneurs: comme si la préture, le consulat et les autres dignités avaient un éclat et une grandeur propre, et ne tenaient pas le cas qu'on en fait la vertu de leur titulaire. Mais je me laisse aller à des propos trop libres et trop vifs, par l'ennui et le degout que causent les mœurs publiques.»(11).

وأدرك سالوستيوس أن الشهرة والمجد يمكن بلوغها بغير العمل السياسي، فتوجه الى الكتابة:

«On peut conquérir l'illustration par les travaux de la paix comme par ceux de la guerre, et les héros comme leurs historiens sont nombreux à mérites l'éloge.»(12).

كما أدرك أن للكتابة منافع للجمهورية، لا يجنبها العمل السياسي، وبذلك أقلع عن السياسة، وتوجه نحو الكتابة التي اعتبرها تسلية لكنها ذات منفعة:

«Ils ne manqueront pas de penser que j'ai obeï plus à la raison qu'à la paresse en changeant de manière de vivre et que mes loisirs apporteront à la republique plus d'avantage que l'action polkitique des autres.»(13).

Une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temps présent; car ce n'est pas le merite qui est à l'honneur.»(14).

بهذه النظرة على حياة سالوستيوس وبمحاولة مقارنتها بما جاء في مقدمتي: «حرب يوغرطة» و«انتفاضة كاتيلينا»، نجد العديد من نقاط التشابه بين محتواها وحياة سالوستيوس.

فسالوستيوس تحدث في مقدمته لـ«حرب يوغرطة» عن الأخلاق والفضيلة، وأكد عليها في العديد من المواقع. في وقت نجده قد أبعد من مجلس الشيوخ الروماني. بتهمة أخلاقية. وقد قبض عليه ملتبساً بجريمة الزنا رفقة «فوستا» ابنة سيلا وزوجة ميلون.

عندما عيّن حاكماً لأفريقيا الجديدة أتهم بالاختلاس، ولم يخلصه من التهمة غير تقديمه مبلغاً مالياً لقيصر. وهذا ربما ما جعل سالوستيوس يتحدث عن الأمانة والاستقامة. ثم الرشوة لأن سالوستيوس أنغمس فيها.

تحدث سالوستيوس عن امكانية تحقيق الشهرة والعظمة، بعيداً عن السياسة. وهذا بعد أن أرتدى فيها وخاب:

«Tout jeune encore à mes début, je me suis comme à peu près tout le monde, jeté avec fougue dans la politique j'y ai éprové bien des déboires.»(15).

«Une activité politique quelconque ne me paraissent pas du tout à envier dans le temps présent car ce n'est le merite qui est à l'honneur.»(16).

تلك هي بعض الجوانب المتعلقة بحياة سالوستيوس في مقدمته لحرب يوغرطة، ولا نستبعد أن يكون لاختيار سالوستيوس «حرب يوغرطة» علاقة مماثلة، لكن ربما

أقل جلاء. فسالوستيوس مثلاً يذكر أن سبب اختياره لهذه الحرب هي: أولاً قساوتها وشراستها. لدرجة أن النصر فيها ظل لمدة غير مؤكد. وثانياً لأنه، لأول مرة تسجل مقاومة لاستبداد النبلاء. وهي المقاومة التي أحدثت انقلاباً عاماً...⁽¹⁷⁾. ولا نستبعد أيضاً أن يكون هذا السبب الأخير هو الدافع الأساسي إلى تأليف الكتاب، بهدف مواصلة الهجوم على النبلاء. الذين وقفوا في طريقه وطريق الطبقة العامة في العديد من المناسبات. كما يمكننا أن نشير إلى حادثة أبعاده من مجلس الشيوخ الروماني سنة 50 ق.م. في هذا الوقت الذي أبعده فيه سالوستيوس من المجلس كان زميله في تمثيل العامة كيريون Curion يتابع أمام الشعب المطالبة. بسقوط يوبا الأول وحظر مملكته⁽¹⁸⁾. وفي هذه القضية تجدد لموقف العامة من مملكة نوميديا، هذا الموقف الذي لم يحد عنه سالوستيوس في كتابه «حرب يوغرطة». وهو اعتبار «نوميديا» جزءاً من ممتلكات الشعب الروماني.

اذن يمكننا القول أن سالوستيوس عندما هم إلى تأليف هذا الكتاب. وضع نصب عينيه هدفاً لم يحد عنه إطلاقاً وهو مهاجمة النبلاء. وإبراز دور ممثلي العامة في مجلس الشيوخ. في الدفاع عن الأخلاق والشرف والمصلحة العليا للبلاد أمام النبلاء. الذين لا هم لهم سوى اللهث وراء المصالح الشخصية⁽¹⁹⁾.

2 - فكرة التبنّي:

في معرض حديث سالوستيوس عن ظروف تبنّي مكيبسا (مكوسن) ليوغرطة. يذكر بعد أن استعرض خصال يوغرطة المتمثلة في حدة الذكاء والشجاعة. أن مكيبسا استبشر خيراً بهذه الخصال بادئ الأمر. لكن تقدمه في السن وصغر ابنه (اذربعل وهيمبصال) جعله ينقلب على يوغرطة. الذي أصبح يرى فيه خطراً على ولديه. وبدأ يفكر في طريقة تخلصه منه. ففكر أولاً في اغتياله. لكن خشي أن يتسبب ذلك في ثورة النوميديين⁽²⁰⁾، وأعطته حرب نومانس الفرصة لعرض يوغرطة للخطر، فأرسله على رأس فرقة من النوميديين، عساه يذهب ضحية شجاعته واقدامه⁽²¹⁾، لكن «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»، فقد استطاع يوغرطة بما أظهره من فطنة وتواضع أن يكسب ود وصداقة كثير من الرومان، وكذلك ثناء

القائد الروماني سكيبيو إميليانوس، الذي كلفه - بعد هذه الحرب - بتبليغ الرسالة التالية إلى مكيبسا:

«... لقد أظهر يوغرطة في حرب نومانس شجاعة منقطعة النظير، هذه بشرى ازفها إليك، ولا شك أنها ستغمر قلبك بالسعادة، ليوغرطة من الخصال ما جعله عزيزاً لدينا، وسنعمل كل ما في وسعنا ليشاطرنا مجلس الشيوخ والشعب الروماني هذا الاحساس، باسم صداقتنا أقدم لك أطيب التهاني، لك في يوغرطة رجل جدير بك، وجدير بجده مسينيسا...»⁽²²⁾.

بهذا التسلسل قدم سالوستيوس الأحداث بهدف الوصول إلى أن هذه الرسالة كانت بمثابة إيعاز من سكيبيو إلى مكيبسا بضرورة تبنّي يوغرطة وإشراكه في الحكم، إذ أورد أنه بعد تلقي مكيبسا لهذه الرسالة غيّر رأيه في يوغرطة، وفورا تبنّاه، وأوصى له بالعرش مثله مثل أبنائه:

«Cette lettre lui ayant confirmé ce que le bruit public lui avait appris, Micipsa fut tout troublé à l'idée du mérite et du crédit de son neveu, et il modifia sa manière de voir, il s'attacha à dominer JUGURTHA par ses bien faits, l'adopta sans tarder, et par testament fit de lui son héritier, concurremment avec ses fils.»⁽²⁴⁾.

لكن إذا حاولنا تحليل ما جاء في هذه الفقرة وما بعدها، سنجد أن سالوستيوس قد وقع في متهاتات لا حصر لها:

إذ من المعروف تاريخياً أن مكيبسا توفي سنة 118 ق.م، ويفهم من الحديث الذي دار بين الأشقاء الثلاثة بعد الانتهاء من مراسيم الدفن، حسب رواية سالوستيوس، أن اقتراح يوغرطة بالغاء كل التدابير والقرارات التي اتخذها مكيبسا في الخمس سنوات السابقة لوفاة، قد أحرز على رضى هيمبصال: «بكل طيبة خاطر، أجاب هيمبصال، بما أن مكيبسا تبنّاه منذ ثلاث سنوات فقط، ليسمح لك بالوصول إلى العرش...»⁽²⁵⁾. معنى هذا أن يكون التبنّي قد وقع على أبعد تقدير سنة 121 ق.م. لكن سبق لسالوستيوس أن ذكر أن مكيبسا تبنّى يوغرطة فور عودته من نومانس. بعد تلقيه رسالة سكيبيو إميليانوس. لكن إذا علمنا أن حرب نومانس

انتهت بسقوط المدينة في يد سكيبيو سنة 133 ق.م.،⁽²⁶⁾ وما دام التبرني قد وقع فور عودة يوغرطة من نومانس، فالمفروض أن يكون في ثلاثينات القرن الثاني ق.م.، على الأقل، أي باثني عشر سنة تقريبا، وليس بثلاث سنوات قبل وفاة مكيسا. والخطأ هنا واضح عند سالوستيوس الذي قلص فترة الخمس عشرة سنة التي تفصل بين سقوط نومانس ووفاة مكيسا إلى ثلاث سنوات. ورغم أن قرال⁽²⁷⁾ يرى ضرورة الفصل هنا بين قرارين، لمكيسا بشأن يوغرطة: (1) التبرني و(2) تسجيله في الوصية كوريث للعرش، يكون بالتالي أحدهما مؤرخاً بـ 133 ق.م.، والآخرب 120 ق.م.، لكن نص سالوستيوس واضح لا يحتاج إلى تأويل. وحتى إذا افترضنا هذا التأويل فهو لا جدوى منه لسببين:

- 1 - إذا افترضنا أن التبرني حدث سنة 133 ق.م. فهو وحده يمكن يوغرطة من الوصول إلى الحكم وفق التقاليد النوميديية. وبالتالي لا حاجة للوصية.
- 2 - إذا افترضنا ضرورة هذه الوصية فيكون أيضا مكيسا لم يتبن يوغرطة. نزولا عند رغبة سكيبيو إميليانوس. كما يذهب إلى ذلك جلّ المؤرخين⁽²⁸⁾. لأن هذه الوصية. كما رأينا. تعود إلى سنة 120 ق.م. وكان سكيبيو إميليانوس قد توفي منذ تسع سنوات (توفي سنة 129 ق.م.). واعتمادا على هذا هل نستطيع أن نستبعد ما يذهب إليه جلّ المؤرخين من أن مكيسا تبرني يوغرطة نزولا عند رغبة سكيبيو. إذ واضح أن مكيسا لم يتبن يوغرطة فور عودته من نومانس. وإنما تبناه فعلا عندما اشتد عليه المرض. وشعر بدنو أجله. وهو ما أشار إليه سالوستيوس بقوله:

«Quelques années plus tard accablé par la maladie et les années et sentant sa mort prochaine...»(29).

في خضم كل هذا. هل يمكننا التحدث. هنا عن اصلاح اداري قام به مسينيسا. وأراد مكيسا الاحتفاظ به؟

لا نستطيع الجزم في هذا الموضوع. لكن النقوش توحى بذلك. فقد عثر على نقيشة من نقوش معبد حتحور بمكث⁽³⁰⁾. تثبت أن الحكام الذين حكموا مكث كانوا ثلاثة لا اثنين. كما هو في قرطاجة. وهذه النقيشة أكدتها شاهدة قبر كتوس فيريوس روقانوس (Q. Verrius Rogatus) التي تعطي لهذا الشخص لقب

(Triumvir) وقد استمر الحكم في مكث، في يد هيئة ثلاثية حتى تحويل المدينة إلى مستعمرة في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس (161-180م). وما يلاحظ أيضا أن الاشفاط الثلاثة في النقيشة المذكورة كانوا يحملون أسماء نوميديية. ونعثر على نموذج آخر في الكونفيدرالية الكيرتية⁽³¹⁾، التي كان يحكمها ثلاث ولاية، وهو ما لم يعثر له ببيكار⁽³²⁾ على تفسير.

وقد مرت كيرتا بمرحلة الحكم الثنائي⁽³³⁾ (Duovir)، أيام كانت مستعمرة، لكن مع تكوين الكونفيدرالية في أوائل القرن الأول بعد الميلاد، تحولت إلى الحكم الثلاثي⁽³⁴⁾ Triumvir فهل يتعلق الأمر هنا بإحياء عادة نوميديية، رغم أننا لا نملك ما يؤكد ذلك بصفة قطعية، غير أن العثور على نقيشتين في سكيكدة⁽³⁵⁾ فيها ما يؤكد الحكم الثلاثي في هذه المدينة، وأيضا في ميلة التي أصبح الحكم فيها، بعد الغاء الكونفيدرالية الكيرتية ثلاثيا، كما تؤكد ذلك النقوش⁽³⁶⁾. كما تحدثت النقوش عن ولاية ثلاثة في القل⁽³⁷⁾. هذا كله إضافة إلى اتفاق البونيقيين والرومان في اسناد إدارة المدن إلى هيئة ثنائية يجعلنا نرى في الحكم الثلاثي نظاما وتقليدا خاصا بنوميديا.

3 - الرشوة :

كتاب سالوستيوس «حرب يوغرطة» مليء بالمواضع التي تحدث فيها عن الرشوة، اخترنا منها خمسة مواضيع للمناقشة والتحليل نوجزها فيما يلي:

- 1 - بعد حرب نومانس وبعد ثناء سكيبيو على يوغرطة على مرأى الجنود الرومان انفرد به ونصح به بتوثيق علاقاته بالشعب الروماني كله، وبين له أن العلاقات الشخصية غير كافية ونبيه إلى خطورة شراء ما يملكه الشعب كله من أقلية لا ترى سوى مصالحها⁽³⁸⁾.

- 2 - أثناء الصراع بين يوغرطة وأذربعل أرسلت روما وفدا من عشرة أعضاء برئاسة لوكيوس أوبيميوس (L. Opimius) بهدف فك النزاع بين الشقيقتين، فتم تقسيم المملكة بينهما، فحصل يوغرطة على الجزء الغربي الأكثر ثراء والأوفر سكانا بفضل الرشوة التي قدمها للوفد، بينما حصل أذربعل على الجزء الشرقي العديم الفائدة، رغم كثرة المدن والمرافئ⁽³⁹⁾.

3 - لم يحترم يوغرطة أمر التقسيم وانقض على اذربعل وحاصره في كيرتا ، فأرسلت روما وفدا برئاسة سكاوروس (Scaurus) ، لكن يوغرطة لم يبال ، وواصل زحفه على كيرتا ، التي دخلها وفتك بالجالية الايطالية واذربعل ، فثارت العامة في روما ، ودعت الى اعلان الحرب . أرسل يوغرطة وفدا الى روما مثقلا بالهدايا والذهب ، ليجنب نفسه الضربة الموجهة له ، لكن وعلى أثر نزول الوفد النوميدي في ايطاليا ، طلب القنصل بستيا من مجلس الشيوخ ان كان من رأيه استقبال مبعوثي يوغرطة في روما ، لكن مجلس الشيوخ رد بالرفض ، ان لم يكونوا آتين لوضع «المملكة» و«الملك» تحت تصرف الشعب الروماني (40) .

4 - نزل بستيا في الولاية الرومانية بافريقيا ، وبعد أن ضمن التكوينات ، توغل في الأراضي النوميدي واستولى على العديد من الأسرى والمواقع ، لكنه باع السلم الى يوغرطة ، تمت دعوة يوغرطة الى روما بهدف استنطاقه ، لكن بانيوس منعه من الكلام «اللغة معروفة - الرشوة -» مما أثار ضجة في مجلس الشيوخ .

ان اغتيال مسيو (Massiva) لم يترك خيارا لمجلس الشيوخ الذي أمر بإبعاد يوغرطة من روما ، واعلان الحرب ، مع تولي البينوس Sp. Albinus مهام القيادة (41) .

5 - بعد دخول ميتلوس مدينة «تالة» ومغادرة يوغرطة لها ، توجه هذا الأخير الى بلاد الجيتول ، حيث جيش الجيوش ، وعمل على استمالة بعض الشخصيات المقربة من الملك الموريطاني «بوخوس» بالهدايا والوعود ، وبفضل هذه الشخصيات ، أثر على الملك الموريطاني ، وأقبحه معه في الحرب ضد روما (42) .
في الموضوع الأول يوحى لنا سالوستيوس وكأن يوغرطة بدأ يفكر في شء أعضاء مجلس الشيوخ منذ أيام نومانس ، وهو ما نعتبره من الأحكام المسبقة والأغراض التاريخية عمل بها سالوستيوس لتبشيتنا لقبول ما سيأتي من أحكام في هذا الموضوع .

أما ما ذكره في الموضوع الثاني حول التقسيم فهو يتنافى والواقع التاريخي ، فالمنطقة الشرقية التي اعتبرها سالوستيوس عديمة الفائدة هي أكثر ثراء وأوفر عمرا في الواقع ، اذ استفادت من وسائل الاستئثار أكثر من المنطقة الغربية ، فالمنطقة التي

حصل عليها اذربعل تضم اقليم كيرتا العاصمة الملكية ، وعلى احتكاك بقرطاج ، ثم بالولاية الرومانية ، وتمتد حتى السرت الكبير وتضم السهول الكبرى وسهول امبوريا والعديد من المرافئ التجارية والمدن الكبرى . خلافا للمنطقة الغربية التي ظلت ولمدة طويلة بعيدة عن مناطق التأثير والاستغلال ، ولا نستبعد أن يكون سالوستيوس يضرر سوء نية ، عندما أكد انتفاع يوغرطة من حصوله على القسم الغربي ، واخفاء سالوستيوس للحقيقة ، يجعلنا نتساءل عن الدواعي الحقيقية التي دفعت وفد العشرة الى منح اذربعل الجزء الشرقي من نوميديا ، الا يكون في ذلك ابعاد ليوغرطة الذي لا تطمئن روما الى نواياه ، أما اذربعل العائد في الحال من روما بعد أن أكد تبعية مملكته وخضوعه لإرادة الشعب الروماني (43) ، فلا خوف منه ، ألا تكون هذه القاعدة هي التي تحمكت في التقسيم وليست الرشوة ؟ فالمنطقة الشرقية الكثيرة الموانئ والمدن التي تحيط بها الحقول والمزارع كانت تقدم للتجار الرومان مجالا واسعا للنشاط والاستغلال (44) مع ما يوفره لهم اذربعل من حرية التحرك .

إذا كانت هذه القاعدة هي التي تحمكت في التقسيم فلماذا هذا السكوت عنها من سالوستيوس ؟ ألا يكون لذلك علاقة بشخص أوييميوس رئيس وفد العشرة وبأحداث سابقة جرت في روما ؟ لا نستطيع الجزم في الأمر ، لكننا على علم أن أوييميوس هذا هو قاتل المصلح الشعبي كايوس كراكوس Caius Gracchus ، وبالتالي ألا يكون أوييميوس هذا مذنباً على الأقل من وجهة نظر العامة ، ويجب الانتقام منه ؟ ! ربما كان ذلك وراء توريطه في قضية الرشوة .
أما في الموضوع الثالث فكلام سالوستيوس يثير العديد من التساؤلات :
أ - يفهم من كلام سالوستيوس أن يوغرطة ارتقى على اذربعل بمجرد ذهاب الوفد الروماني «بعد تقسيم المملكة ، ومغادرة وفد مجلس الشيوخ افريقيا... فجأة هاجم يوغرطة وبفرقة قوية ، أراضى اذربعل» .

* «Après le partage du royaume les délégués du senat avaient quitté l'Afrique... brusquement avec une forte troupe JUGURTHA envahit son territoire.» (45).

لكن المعروف تاريخيا أن التقسيم تم أواخر سنة 117 ق.م. والاختلاف بين

الشقيقتين يعود إلى سنة 113 ق.م من هنا نفهم أن سالوستيوس تجاهل أربع سنوات، ولا نستبعد أن يكون ذلك عن قصد، لماذا؟ لا ندرى، لكن ربما ليبن لنا طموح يوغرطة الزائد وهفته على تلطيخ الشرف الروماني.

ب - اذا كان بستيا قد تلقى فعلا تلك الأوامر القاضية بعدم القبول بأي شيء غير خضوع الملك لإرادة الشعب الروماني⁽⁴⁶⁾، فقد احتطنا لماذا وقع معاهدة السلم مع يوغرطة وخاصة ان هذه المعاهدة جاءت بعد توغل بستيا في الأراضي النوميديّة وبعد أخذ العديد من الأسرى والمواقع على ما يذكر سالوستيوس⁽⁴⁷⁾. في نظر سالوستيوس - طبعا - يكون بستيا قد فضل المال على الشرف، أما الواقع فغير ذلك، اذ نجد مثلاً كاركوينو⁽⁴⁸⁾ يعلل ذلك باعتبارات انتخابية بالنسبة لبستيا. أما بالنسبة لمرافقه سكاوروس فيعلل ذلك ببعد نظره الى ما يترتب عن استمرار هذه الحرب من خسائر، ففضل - وفق تعبير كاركوينو - كسبا محدودا على المغامرة في حرب لا يرى لها نهاية، فكان سوق لبدة⁽⁴⁹⁾ في نظره يكفي لارضاء الارستقراطية الرومانية.

ج - سكاوروس (Scaurus) المرافق لبستيا والذي قدمه لنا سالوستيوس ثائرا على المرتشين في بداية الحرب، ها هو يتقبل الرشوة، ربما اعتبر هذا أمرا طبيعيا، لكن الغريب ان سكاوروس هذا الذي تقبل الرشوة⁽⁵⁰⁾ سرعان ما تم اختياره ضمن الثلاثة المكلفين بالتحري في قضية الرشوة⁽⁵¹⁾ وهو لغز لم نجد له حلا!

د - يذكر سالوستيوس ان دخول يوغرطة كيرتا والفتك بالجالية الإيطالية كان وراء دعوة العامة لإعلان الحرب، ولكن الملفت للانتباه ان دخول كيرتا كان في صائفة 112، ولا شك أن الخبر وصل مباشرة الى روما، التي كانت تترقب الأمر، لكنه لم يتسبب في أي رد فعل فوري، والظاهر أن الخبر استقبل بشيء من البرودة واللامبالاة. وكان يجب انتظار نهاية فترة الخريف، حتى يبدأ كايوس ممبوس (C. Memmius) في إثارة العامة ضد الرشوة أكثر منها ضد تقتيل الجالية الإيطالية، لأننا لا نجد حتى في نص سالوستيوس إشارة الى تقتيل الإيطاليين خاصة⁽⁵²⁾.

أما في الموضع الرابع من مواضع الرشوة فقد قدم لنا سالوستيوس أحداثا مهزوزة ومتداعية من عدة جوانب:

1 - يوغرطة يضع نفسه تحت تصرف الشعب الروماني، وينتقل الى روما، حيث يرتكب جريمة وعوض اللقاء به في السجن يبعد من روما ليعود الى نوميديا ويتولى من جديد قيادة قواته.

2 - في الجهة الأخرى القنصل البيّنوس يجتاز البحر وكله أمل في القضاء على يوغرطة، لكنه يعود الى روما في خريف 110 ق.م، دون أن يحقق شيئا يذكر، تاركا القيادة لشقيقه ألوّس (Aulus Albinus)، ونتيجة لتعطيل الانتخابات قام هذا الأخير خلال شهر يناير (جانفي) 109 بحملة على نوميديا، وفي سوئل أذاقه يوغرطة شر هزيمة. وعملا على محو آثار هذه الهزيمة، ورد الاعتبار عاد سبيريوس البيّنوس (Sp. Albinus) الى إفريقيا عساه يصلح ما فسد، لكنه لم يجد في إفريقيا غير جيش منهار المعنويات، غير منظم وغير قادر على القيام بأي عمل⁽⁵³⁾، فعاد سبيريوس ثانية الى روما تاركا القيادة لشقيقه، في هذه الأحداث حادثان تسترعان الانتباه:

أ - بعد عودة سبيريوس الى روما ترك القيادة لشقيقه أولوس بصفته بروبريتورا (Propreteur) وهي صفة جديدة. وطبيعي أنه لم تكن له مهمة أخرى غير انتظار القنصل الجديد لسنة 109 ليخلفه في شهر يناير (جانفي) لكنه في هذا الشهر بالذات يقوم بحملة على نوميديا!

ب - بعد أن تحدث سالوستيوس على تعطيل الانتخابات بسبب إثارة العامة لجدال حول القوانين الأساسية يقدم لنا فجأة ميتلوس كقنصل من نصيبه نوميديا، لكن الغريب أننا نجد سبيريوس البيّنوس ما زال يعمل بصفته بروقنصلا وهذا رغم وجود قنصل معين؛ فجند الفرق وأعاد تكوين جيش إفريقيا بمساعدة الحلفاء والإيطاليين⁽⁵⁴⁾.

وعلى ضوء هذا التناقض يمكننا القول أن الجدال الذي أثارته العامة حول القوانين الأساسية قد تنسب في تعطيل الانتخابات لسنة 109 ق.م. واستمر سبيريوس البيّنوس في منصبه بصفته بروقنصلا. وبهذه الصفة جيش الجيوش وعاد

الى افريقيا. أما انتخاب ميتيلوس كقنصل، فكان لسنة 108 ق.م.، وما يدعم هذه الفكرة ان حرب يوغرطة تنتهي بالقبض على الملك سنة 105 ق.م.، ووضع قنصلية ميتلوس لسنة 108 ق.م.، يتأشى والاحداث التاريخية. اذ من المعروف أن ميتيلوس بقي بافريقيا سنتين⁽⁵⁵⁾. فتكون من وجهة نظرنا سنتي 108-107 ق.م. بينما يعين ماريوس لسنة 106-105، وهو ما يوافق ما ذكره فليوس باتركولوس⁽⁵⁶⁾ (Velleius Paterculus)، الذي يذكر أن ماريوس عاد في قنصلية الثانية ومعه يوغرطة. وإذا أخذنا بتعيين ميتلوس لسنة 109 ق.م. الذي يأخذ به كثير من المؤرخين، يكون ماريوس قد بدأ حملته سنة 107 ق.م. ويكون بذلك قد بقي بافريقيا ثلاث سنوات، وهو ما يتنافى مع ما ذكره فليوس وسالوستيوس.

أما الموضوع الخامس والأخير بالنسبة لهذه الدراسة فالواقع أن سالوستيوس، الذي اعتبر الرشوة السبب الأول في اقحام بوخوس في الحرب ضد روما، قد أشار أيضا الى السهولة التي تم فيها هذا التقارب بين يوغرطة وبوخوس، وذلك لاعتبارين:

أ - كون بوخوس قد عرض على الرومان في بداية هذه الحرب التحالف، ولكنهم رفضوا عرضه.

ب - زواج يوغرطة باحدى بنات بوخوس⁽⁵⁷⁾ Bocchus. وقد اعتبر سالوستيوس هذا العامل الثاني غير ذي أهمية، بحكم أن رابطة الزواج عند النوميديين والموريطانيين لم تكن لتقن الروابط العائلية، نتيجة تعدد الزوجات⁽⁵⁸⁾. وهو في رأينا ما يخالف العادات، فالروابط العائلية كانت دائما من أمثن الروابط عند المغاربة، رغم فكرة تعدد الزوجات التي أشر إليها بعض المؤرخين. ولا نستبعد أن يكون سالوستيوس هنا منطلقا من رؤية الرومان لفكرة تعدد الزوجات، التي لا يجذونها، بل نقول ينبذونها ويحرمونها، وفي هذا الاطار نتذكر حادثة زواج يوليوس قيصر من كليوباترة، وهو الزواج الذي لم يعترف به المجتمع الروماني، واعتبر ابنها قيرون - فيما بعد - ابنا غير شرعي⁽⁵⁹⁾. ومن هنا لا نستبعد أن يكون لعامل الزواج هذا الدور الحاسم في انضمام بوخوس الى يوغرطة، كما تجدر الإشارة أيضا إلى الكلمة التي ألقاها بوخوس في محضر سيلا حيث قال:

«إنه إذا حمل السلاح، فليس من أجل الاعتداء، لكن من أجل الدفاع عن مملكته... وأنه لا يسمح لماريوس، أو لأي كان بالاعتداء عليها وتخريبها...»⁽⁶⁰⁾.

تلك اذن هي العوامل التي تحكمت في التحالف النوميدي - الموريطاني - من وجهة نظرنا - وليست الرشوة التي اتخذها سالوستيوس وسيلة لمهاجمة النبلاء عامة واعضاء مجلس الشيوخ خاصة كلما أتاحت الفرصة لذلك.

هذه بعض المآخذ التي رأينا ضرورة الإشارة إليها عند سالوستيوس الذي لم يكن في هذا الكتاب «حرب يوغرطة» مؤرخا فحسب، بل كان أيضا سياسيا يدافع على مصالح طبقته، وذلك بالكشف عن مفاصل طبقة النبلاء، والتأكيد على انتصار الفضيلة وصفاء الشعب، على نزعة الشر والاثم عند النبلاء، لدرجة أنه يوحي لنا أن الحرب التي خاضها النبلاء بشيء من الفتور لم تنته الا بفضل العامة التي عملت حتى أوصلت رجلا جديدا - ماريوس - رغما عن ارادة النبلاء، وهو الذي دفع الحرب الى نهايتها والقبض على يوغرطة، كما يمكننا القول أن الصراع بين النبلاء والعامة كان وراء اختيار سالوستيوس موضوع «حرب يوغرطة» بهدف ابراز الصراع القائم آنذاك في روما ودور العامة فيه، وهو الصراع الذي كانت له تأثيرات على العالم غير الروماني، وهي تأثيرات ناجمة - من وجهة نظرنا - عن اختلاف مصالح الطبقتين، حتى أنه يحق لنا أن نتساءل ان لم تكن هذه الحرب نتيجة لهذا الصراع، خاصة واننا عرفنا أن دخول يوغرطة كيرتا، الذي اعتبره سالوستيوس السبب المباشر لهذه الحرب، كان في صائفة 112 ق.م. لكن الاعداد للحرب لم يبدأ الا في أواخر هذه السنة، ولم تبدأ الحرب فعلا الا في ربيع سنة 111 ق.م.

وما لا شك فيه ان سالوستيوس كان عارفا بأصول النزاع الطويل بين نوميديا وروما، والغريب أنه حضر المداولات التي كانت تطالب في سنة 50 ق.م.، بالحاق نوميديا بالملكات الرومانية⁽⁶¹⁾، في وقت اعتبر فيه نوميديا - في كامل كتابه - جزءا من الملكات الرومانية من وجهة نظر أسلافه لسنة 110 ق.م.، فإذا كانت كذلك منذ سنة 110 أو قبلها فلماذا المطالبة بحظرها سنة 50 ق.م.؟

ومع هذه المآخذ وغيرها والتي تدفعنا الى أخذ الكتاب بحذر شديد ينفرده سالوستيوس عن المؤرخين الرومان، باقلاعه عن طريقة الحوليات، وتوجهه الى

كتابة بحوث مطولة في موضوع واحد، هذا إضافة الى الصياغة اللغوية الجيدة، وهو ما جعل تاكيتوس يلقبه بـ «المعلم» .

الهوامش:

(1) PLUTARQUE, De la malignité d 'Herodote, dans : œuvres morales, t. 4, pp. 209-260.

(2) جورج سارتون، تاريخ العلم، الجزء الثاني، ص 158، دار المعارف، ط 2 1970.

(3) سالوستيوس، كاتيلينا، 3.

(4) المصدر نفسه.

(5) جرت العادة في روما أن العودة الى مجلس الشيوخ بالنسبة لضحايا صرامة المراقبين أن يكلفوا بمهام أدنى من التي كلفوا بها سابقا أو مساوية لها. مثل هذه الحالة التي عين فيها بنفس المنصب للمرة الثانية.

Dion Cassius, XLIII, 9. (6)

(7) Of. Richard (F.), p. 14 de l'introduction de sa trad. de la conjuration de catilina et la guerre de JUGURTHA, éd. G.F., 1968.

(8) سالوستيوس - (حرب يوغرطة) 3.

(9) يقصد في الحالة الأولى الارستقراطية وفي الثانية قيصر.

(9) مكرر - سالوستيوس - حرب يوغرطة، 3.

(10) نفسه - كاتيلينا، 3.

(11) سالوستيوس - حرب يوغرطة، 4.

(12) نفسه - كاتيلينا، 3.

(13) نفسه - حرب يوغرطة، 4.

(14) نفسه - 3.

(15) نفسه - 3.

(16) نفسه - حرب يوغرطة، 3.

(17) نفسه - 5.

(18) Cesar, Bell AF., II, 25 et Dion Cassius, XLI, 41, 3.

(19) أنظر الفقرة 31 من حرب يوغرطة على سبيل المثال، حيث يعمل سالوستيوس على إبراز دور ممثل العوام «كايوس مميوس» في الدفاع عن المصلحة العليا للبلاد والعدالة... والنبلاء يرتشون (الفقرتان 32-33 وفي غيرهما).

(20) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 6.

(21) نفسه، 7.

(22) نفسه، 9.

(23) نفسه، 9.

(24) نفسه، 9.

(25) نفسه، 11.

(26) cf. Gsell, H.A.A.N. T 7. p. 140. : ستيفان قرال :

(27) نفسه، ج 5، ص 52، رقم 1، وج 7 أ 141، رقم 1.

(28) أنظر فطر (محمد) يوغرطة ص 121. دار التونسية للنشر 1970. م.

(29) سالوستيوس،

cf. Gilbert-Charles Picard Civitas mactritana, in Carthago, t. 8 1957, pp. 7-75 (p. 39), (30)

(31) Picard (G. ch.) op.cit., p. 40, N° 133.

(32) C.I.L., VIII, 1, p. 618.

(33) Vars (Ch.), Recherches archéologique sur Cirta (2è partie) (Organisation administrative de Cirta Rec. de Constantine, t. XXIX, 1894, pp. 281-534 (p. 311) et Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie pl. 17, pp. 11-13.

(34) C.I.L., VIII, 1, N° 7990 et 7991.

(35) C.I.L., VIII, 1, 8210 et Gsell, Atlas, pl. 17, p. 3, N° 59.

(36) C.I.L., VIII, 1, 6710, 6711, 6958, 7097, 7098, 7125, 8195.

(37)

(38) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 8.

(39) نفسه، 16.

(40) نفسه، 23.

(41) نفسه، 33-36.

(42) نفسه، حرب يوغرطة، 80.

(43) نفسه، 14.

(44)ه يتحدث سالوستيوس عن هؤلاء التجار ودورهم في الدفاع عن كيرتا، حتى لا تسقط في يد يوغرطة، وربما

كان هذا دفاعا في الواقع عن مصالحهم حتى لا تقع في يد يوغرطة، (أنظر الفقرة 26 من حرب يوغرطة

لسالوستيوس).

(45) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 22.

(46) نفسه، 28.

(47) نفسه.

(48) Carcopino (J.) Histoire de la republique Romanie, p. 294.

(49) تنص المعاهدة الموقعة بين بستييا ويوغرطة على سيادة يوغرطة على كامل نوميديا ما عدا مدينة لبدة التي طلبت في بداية الحرب الانفصال عن يوغرطة وفق ما أورده سالوستيوس في (حرب يوغرطة).

(50) سالوستيوس. حرب يوغرطة، 29.

(51) نفسه، 40.

(52) نفسه، 26.

(53) نفسه، 37-39.

(54) نفسه، 29.

(55) بعد انتهاء قنصليته أقره مجلس الشيوخ في منصبه بصفته قنصلا مساعدا (بروقنصلا). رغبا عن إرادة العوام. الذين كانوا يساندون مساعده ماريوس على ما يذكر سالوستيوس (الفقرة 73 من حرب يوغرطة).

(56) Velleius Paterculus, II, 12.

(57) سالوستيوس. حرب يوغرطة، 80.

(58) نفسه.

(59) في هذا الإطار أيضا نذكر اعتبار سالوستيوس ليوغرطة أبنا غير شرعي لمصطبل لانه ربما لم يكن من زوجته الأولى. فكان من عادة هؤلاء المؤرخين للاحداث بمنظور المعتقدات والتقاليد الرومانية. وهنا يكن الخطأ.

(60) Sallustius, Bell. Jug. 102.

(61) وضع كيريون ممثل العامة لسنة 50 ق.م. مشروعا يطالب فيه باسقاط يوبا الأول وحظر مكتبته. أنظر قيصر. الحرب الافريقية الفقرة 2. 25. ديوم كاسيوس XLI . 3. 41.

موقف المدرسة الغربية من تاريخ الجزائر في العصر الوسيط

عبد الحميد حاجيات

نظرا لسعة الموضوع، يقتصر حديثنا على معالجة بعض المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الجزائر في العصر الوسيط، فيما يخص بعض القضايا الجوهرية.

يختلف موقف هؤلاء المؤرخين حسب انتمائهم السياسي أو العلمي. فبينما نجد نزعة تشويه تاريخ الجزائر جلية واضحة عند ضباط الجيش الفرنسي الذين اشتغلوا بالتاريخ، نلاحظ أن المؤرخين الجامعيين أظهروا الالتزام بالمنهجية العلمية، ولكنهم لم يسلموا من تأثير نظريات مؤرخي الاستعمار، أما رجال الدين المسيحيون، فإنهم لم يتخلصوا من نزعتهم البشرية، ولم ينسوا، في يوم من الأيام، عداء أسلافهم الصليبيين للإسلام.

أما الطرق التي استعملها المؤرخون الفرنسيون لتشويه تاريخ الجزائر، فهي متنوعة. والجدير بالملاحظة أن الكثير منهم اغتبنوا فرصة قلة المعلومات بالنسبة للفترات القديمة، فسمحوا لأنفسهم بتقديم افتراضات، معتمد على أدلة واهية، وموجهة كلها نحو تمجيد حضارة اليونان والرومان، واستنقاص الإسلام والعرب. ومن الطرق التي انتهجها المؤرخون الغربيون، الاعتماد على المصادر العربية القديمة، وقبول كل ما ورد فيها من قصص وأساطير، واحلال ذلك محل الحقيقة